الذكر حقيقته وشروطه عند عبد الرحمن الأخضري البسكري(ت953هـ)

بقلم
د. معمر قول *



ملخــص

يُعتبر ذكر الله من أشرف الوظائف والعبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه ومؤشرا قويا على الرابطة الإيمانية التي تربط المخلوق بخالقه ،ولما كان بهذه المكانة جعله أرباب الطرق الصوفية شرطا في الوصول والكمال ووسيلة لتطهير النفس وتزكيتها ،ولما كان الذكر عبادة كانت طريقته قائمة على ما أمر الله به ورسوله -،إذ ذكر الله بما أمر أكمل ذكر ،لذا كان لا بد أن يكون مصحوبا بالوقار والأدب دون رعونة أو ادعاء مع حضور قلب وفكر ، وهو ما أكد عليه عبد الرحمن الأخضري في منظومته " القدسية في التصوف " التي عالج من خلالها هذا الموضوع مُبينا حقيقته وشروطه وأركانه.

الكلمات المفتاحية: الذكر-الحضرة-الشريعة-الحقيقة-التزكية- الأخضري. السنة، مصطلح، مدارس فقهية.

*- أستاذ محاضر أ قسم أصول الدين معهد العلوم الإسلامية، جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي.
koulkoul6@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/09/17تاريخ القبول: 2020/03/09- تاريخ النشر: مارس 2020

مقدمة

يُعتبر السير إلى الله من أعظم الخطوات التي يخطوها السالك في حياته كلّها، كيف لا وهو رحلة الروح تحقيقا لمبدأ الاستخلاف وأداء للوظيفة الوجودية وتحقّق بالتكريم الإلهي للإنسان الذي أصبح الإنسان بمقتضاه سيدا على نفسه بتحرره من رقّ شهواته وعبوديته لنفسه وأناه ،وتحررا من عالمه الطيني الترابي تحقيقا للتوازن بين الروح والجسد ،وتحررا من كل أشكال العبودية الزائفة ،ولما كان السير إلى الحقّ بهذه المرتبة كان الطريق عميقا ومتشعبا ،مما يجعل رسم مساراته ومعالمه أمرا منوطا بالذين ساروا فيه وخبروا دروبه فعلموا مسالكه ومزالقه ،ولما كان الإنسان (السالك)هو الطالب في هذا السير وفي هذه الرحلة كان تعرّفه على ذاته مطلبا منهجيا وموضوعيا ،ولما كان الحقّ مطلوبا للسائرين وغاية مرادهم كان التعرّف عليه مطلبا عقديا وإيمانيا من خلال التعرّف عليه بأسمائه وصفاته التي أخبر بها على لسان نبيه ﷺ الذي يُعتبر الإنسان الكامل الدال على الحق بقوله وفعله ،لذا كان الطريق الذي رسمه أقوم الطرق وأبلغها ،وتتضح معالم الطريق الذي رسمه من خلال ما أرساه في حديث جبريل المشهور عن الإسلام والإيمان والإحسان، وعليه فهذه الثلاثية المقدسة مسالك وطرق ونوافذ إلى عالم الحقّ ،وهي متكاملة فيما بينها وقائم بعضها على بعض ،فالنهايات (الإحسان) في البدايات (الإسلام)،وعلى ضوء هذه الثلاثية نشأت علوم مختلفة في الحضارة الإسلامية تقريبا لهذه المعاني وتبسيطا وشرحا لها ،فنشأ الفقه شرحا للإسلام ،ونشأت علم العقائد والكلام والأصول شرحا للإيمان ،كما نشأ التصوف شرحا لمسلك الإحسان.

وقد عالجت هذه العلوم الإسلام كمنظومة متكاملة ،ومع مرور الزمن واختلاف السياقات السياسية والثقافية توجهت هذه العلوم إلى نوع من التخصص بانفرادها في تناول مواضيع بعينها ،ومن أبرز هذه العلوم علم التصوف الذي اشتغل أهله ببيان مقام الإحسان ،وألفوا في ذلك مؤلفات رسم أصحابها من خلالها معالم السير إلى الحق وأفاضوا في الحديث عن أمراض القلوب والنفوس والحديث عن أدوائها ودوائها تربية للسالك والمريد ،وعلاجا له من مُختلف الأمراض ومن أبرز تلك العلاجات المقدمة مسلك الذكر ،وهي دعوة للمريد على التزامه استحضارا للحقيقة المطلقة وهي الحقّ وطردا للغفلة وتطهيرا

للباطن ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/09-10.ولما كان الذكر بهذه الأهمية والمكانة أجمع أهل التصوف وطرقه على اعتباره مسلكا مهما في الطريق إلى الحقّ سبحانه وتعالى ،لذا كان مبحثا مهما في كتب التصوف وكلها .

ويُعتبر العلامة عبد الرحمن الأخضري البنطيوسي البسكري دارا ومزارا الجزائري قطرا المالكي مذهبا الشاذلي مشربا (ت 923ه) من أبرز العلماء (علماء التصوف) الذين أفردوه بالدراسة والبحث في منظومته الشهيرة التي لا تزال مخطوطة [القدسية في التصوف]، مبينا فيها حقيقة الذكر وشروطه منبها إلى المزالق الخطيرة التي قد يقع فيها السائر في طريق الحقّ سبحانه، وعلى هذا الأساس نطرح مجموعة من التساؤلات تحدد الإشكالية المراد بحثها.

-من هو عبد الرحمن الأخضري؟ وما واقع التصوف في عصره؟ وما دواعي تأليفه هذه المنظومة؟ وما هي حقيقة الذكر عنده وما هي شروطه؟ وما هي أبرز المزالق التي قد يقع فيها السالك والمريد؟

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة آنفا اتبعت المنهج الاستقرائي التحليلي وذلك بتتبع أقول عبد الرحمن الأخضري الواردة في منظومته ومحاولة تحليها وبيان جذورها المعرفية في كتب التصوف والنصوص الشرعية.

وخدمة لهدف البحث وإشكاليته اتبعت الخطة التالية:

المطلب الأول: التعريف بعبد الرحمن الأخضري ومنظومته

الفرع الأول: نسبه وشيوخه

الفرع الثاني: مشربه وطريقته

الفرع الثالث: وفاته ومؤلفاته

الفرع الرابع: التعريف بمنظومة القدسية في التصوف

المطلب الثاني: الذكر حقيقته وشروطه عند عبد الرحمن الاخضري

الفرع الأول: تعريف الذكر

الفرع الثاني: شروطه

الفرع الثالث: ثمرات الذكر

الفرع الرابع: مزالق الذكر في الطريق

المطلب الأول
التعريف بعبد الرحمن الأخضري ومنظومته

الفرع الأول: نسبه وشيوخه

1-نسبه:

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الصغير بن عامر الأخضري، يتصل نسبه بالعباس بن مرداس صاحب النبي ﷺ،ولد سنة 920هـ في بنطيوس من قرى نواحي بسكرة ،أو ما يُعرف بالزّاب، كان والده محمد الصغير من علماء العصر ،وقد ألف الوالد نظما في هجاء ونقد مدعي التصوف وأطلق عليهم وصف الدجاجلة ،ويظهر تأثر عبد الرحمن الأخضري بوالده وهو المصطلح الذي وظفه في منظومته (القدسية)،كما كان جدّه من علماء الوقت وله فتاوى فقهية [1]

2ـشيوخه:

يرى المؤرخ أبو القاسم سعد الله أن حياة الاخضري يكتنفها الغموض ،لذا نجد سعد الله عند حديثه عن شيوخه يستعمل ما يدل على الظن والتخمين دون الجزم بقوله تذكر الروايات أنه أخذ العلم بقسنطينة عن عمر الوزان ،وعلى شيوخ جامع الزيتونة ،ويرى عبد المنعم الحسني أنه أخذ العلم أيضا عن والده (محمد الصغير) وعن أخيه وعن عبد الرحمن بن القرون عالم قرية ليشانة[2]،كما أخذ عن أشهر شيوخه وهو محمد الخروبي (ت 963هـ) ،الذي اختلف في نسبه فقيل من صفاقس وقيل من طرابلس وقيل من الجزائر وقد أخذ هذا الأخير عن شيوخ منهم زروق الفاسي البرنسي ومحمد بن يوسف السنوسي وتلاميذ عبد الرحمن الثعالبي ،وجميعهم كانوا من أقطاب التصوف في هذه المرحلة[3].

الفرع الثاني: مشربه وطريقته

كان الأخضري في الفروع على مذهب الإمام مالك ،وقد ترك في ذلك مؤلفا مطبوعا ومتداولا وهو مختصر في العبادات أو مختصر الاخضري على مذهب الامام، وكان في السلوك على مشرب الطريقة الشاذلية ،ويذكر عبد المنعم القاسمي انه أخذ الطريق عن محمد بن علي الخروبي حين مرور هذا الأخير بقرية بنطيوس متوجها للحج [4].

وعلى هذا فقد أسهم الأخضري في نشر الطريقة الشاذلية بالجزائر، وكان أبرز الأعلام الذين حملوا رايتها خلال القرن العاشر الهجري بالجزائر المحروسة.

الفرع الثالث: وفاته ومؤلفاته

1-وفاته اختلف في تاريخ وفاة الأخضري وهو ما يجعل فرضية أبي القاسم سعد الله قائمة ،ويذهب معظم الذين ترجموا له أنه عاش ثلاثا وثلاثين سنة فقط ولم يتزوج، أي من(920هـ-953هـ) ،وإن كان البعض يرد هذه الرواية معتمدا في ذلك على قرينتين ،أولاهما :أن هناك عائلتين تدعيان الانحدار من نسله ،وثانيهما النضج العلمي الذي وصل إليه الأخضري وحجم ما تركه من مؤلفات يؤكد أنه عاش مدة طويلة [5].

2-مكانته ومنزلته العلمية: يتفق كل الذين ترجموا للأخضري على طول باعه وعلو كعبه ،فقد ترجم له صاحب شجرة النور الزكية وجعله ضمن طبقات علماء السادة المالكية ،ومما جاء في ترجمته :"...من بيت علم وصلاح الفقيه العلامة الشيخ الصالح المحقق الفهامة المتفنن في العلوم له تآليف مشهورة وكرامات مأثورة..." [6]،كما أشاد أصحاب الرحلات بمكانته ،ومنهم الورتيلاني والعياشي في رحلتهما ،فيرى الورتيلاني أن مؤلفاته وتصانيفه انتفع الناس بها شرقا وغربا ،وقد وقف على ذلك بنفسه في محروسة مصر بالأزهر حيث أقبل عليها الطلاب ،أما العياشي فقد كانت زاوية الاخضري محطة توقف عندها أثناء عودته من الحج وصلاته بزاويته ،حيث يرى أنه إمام جامع لعلمي الظاهر والباطن ، وأنه هو الذي أظهر نبوة خالد بن سنان [7]*

3-مؤلفاته: ذكر أبو القاسم سعد الله قولا لطيفا في شأن الاخضري بكونه لم يدّع أثناء حياته الكرامة والكشف ولا ادراك علم الظاهر والباطن ،وإنما كان عالما عاملا يؤلف المتون ويشرحها ويجمع الكتب ويجلس للدرس ويخرّج التلاميذ وهو شأن العماء الصالحين [8] ،ولا غرابة أن تُثمر هذه السيرة العطرة تراثا ثريّا كتب الله له القبول والانتشار مشرقا ومغربا ،ومما خلّفه:

-السلم المنورق أرجوزة في المنطق-شرح السلم -الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون وهو نظم في البيان، أوجز فيه التلخيص وشرحه- حلية اللب المصون على الجوهر المكْنون -السراج في علم الفلك-الدرة البيضاء في علمي الفرائض والحساب نظما- مختصر في العبادات، يسمى مختصر الأخضري على مذهب مالك[9]،ومن أشهر تآليفه التي جعلتها

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

موضع الدراسة في هذا البحث منظومته في التصوف والتي تُعرف **بالمنظومة الأخذرية أو بالقدسية في التصوف.**

الفرع الرابع: التعريف بمنظومة القدسية في التصوف

اعتمدت في دراسة القدسية على مخطوط موجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية بالحامة، بعنوان " المنظومة الأخذرية" وتُسمى ب"الرسالة القدسية"، تحت رقم:2646،عدد صفحاته :49 صفحة، وجاء في المخطوط ما يلي:" هذه المنظومة الأخذرية وتُسمى أيضا بالرسالة القدسية مفيدة جدا لمن اعتنى بها، وهي على التوحيد الحالي الذي هو أنفع من التوحيد المقالي، والتوحيد الذّوقي لا يُسطّر ولا يُصوّر بل هو سيّار القلوب فقط إلى علّام الغيوب" [10].

وجاء في الصفحة الثانية من المخطوط، وهي من كلام النّاسخ: "هذه منظومة الشيخ الأخذري...غفر الله لمؤلفها وقارئها آمين آمين آمين " .[11]

افتتح الأخذري منظومته بقوله:

يقول راجي رحمة المقتدر المذنب العبد الذليل الأخذر

بحمد رب العالمين ابتدي ثم صلاته على محمد

عارجا إلى كمال قدسه قاصدا إلى علاج نفسه [12]

هذه فاتحة افتتح بها المؤلف نظمه بذكر ذلّه وافتقاره إلى مولاه وحمده والصلاة على رسوله ﷺ،ثم بيّن مقصده من التأليف وهو علاج وتزكية نفسه، وهي افتتاحية يفرضها المقام والفن (التصوف)،إذ قصارى ما يبلغه هذا العلم هو علاج النفس من أدرانها وما علق بها، وهذا ما يتمسك به المريد والسالك لطريق الحق ،وجاء في التعرف لمذهب أهل التصوف:" نفوس الموحدين نفوس سئمت من جميع ما ظهر من نعوتها وصفاتها واستقبحت كل باد بدا منها، وانقطعت عن الشواهد والعوائد والفرائد وعجزت عن إظهار الدعوى بين يديه لما سمعت قوله عزوجل :﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الكهف/110 .[13]

إن علاج النفس أمر ضروري ،إذ كما أن حرمان الجسم من حاجته ومتطلباته يجعله عرضة للأضرار والأمراض فكذلك الروح إذا حُرمت من حاجاتها يجعل الروح عُرضة

لأمراض عدّة [14].

وحَدّ أحد العارفين بالله الإسلام فلخصه في كلمات جعل منها تربية النفس فقال:" ذبح النفس بسيوف المخالفة واعلم أن من نجمت طوارق نفسه ذهبت من قلبه شوارق أنسه بالله " [15].وجاء في الحكم العطائية :" لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين "،وقال ابن عجيبة في شرحها :"قلت الميادين جمع ميدان، بكسر الميم وبفتحها وبه صدّر في القاموس، وهو مجال الخيل، ثم استعير منها لمحاربة النفوس ومجاهدتها، فهي تكر عليه فتظفر به، وتارة يكر عليها فيظفر بها..." [16].

لذا ينبهنا عبد الرحمن الأخضري إلى أمراض النفس وعللها ويضع مقدمة بسيطة تحدث فيها عن حقيقتها وآفاتها وضرورة علاجها، ومما جاء فيها:

اعلم بأن الجوهر الإنساني هو الذي يدعونه الروحاني
منشأه في العالم العلوي ومودع في القالب الجسمي
لأنه في الأصل من جنس الملك فصار مركونا بعالم الحَلَك
فهذه الجوهرة النفسية بالأصل في الدائرة القدسية
دائرة التطهير والكمال وعاقها عن ذلك الاتصال [17]

هذه المقدمة من عبد الرحمن الأخضري مدخل منهجي لعلم التصوف وموضوعه (النفس)،لأن غايته البحث عن تصفيتها وتهذيبها، وقيل أيضا أن موضوعه الذات الإلهية، والقولان واحد ،لأن من عرف نفسه فقد عرف ربّه [18]

المطلب الثاني
الذكر حقيقته وشروطه عند عبد الرحمن الاخضري

ورد ذكر هذا المصطلح بمرادفاته في المنظومة 27 مرة، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم بهذا اللفظ المنصرف إلى حقيقة وضعه واستعماله عند القوم من أهل التصوف أربع عشرة(14) مرّة [19]،منها قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ آل عمران/191،ومنها قوله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾الأحزاب /41.

وقد شغل هذا المبحث (الذكر) مساحة كبيرة في المنظومة، افتتح الأخضري باب الذكر بقوله:

واعلم بأن طرق التطهير كثيرة عند ذوي التنوير

وفي قوله [اعلم] فائدة كبيرة، ففيه إشارة إلى مقام التعليم هذا من جهة، ومن جهة أخرى تنبيه وإرشاد إلى المريد إلى ما يجب أن يعلمه، وقوله [كثيرة] إشارة إلى مناهج وطرق التطهير، أي ليست واحدة وإنما متعددة، كما أنها ليست ميسرة لكل واحد بل لا يدركها إلا أهل الطريق، وهذا ما يفيده قوله [عند ذوي التنوير].

ثم يقول الأخضري:

أقربها نفعا طريق الذكر بسرعة يُزيل كلّ سرّ

وفي قوله [أقربها] الهاء عائدة على طرق التطهير ،ونجد أرباب الطريق يعتبرونه أحد المقامات وركنا هاما لا استغناء للسالك عنه ،وفي هذا يقول القشيري :" الذكر ركن قوى فِي طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر " [20] ،وقد عقد الشيخ عبد الحميد بن باديس فصلا عن هذا الركن بقسميه العلمي والعملي وتعرض لحقيقته وأهميته وبيّن مكانته في الدين :"الذكر أصل من أصول الدين العظيمة، أو هو الدين كله، ولذا امتلأ القرآن العظيم بالآيات المشتملة عليه..." .[21]

الفرع الأول: تعريف الذكر

بين الاخضري-رحمه الله-حقيقة الذكر وأهميته وشروطه دون أن يتعرض لحدّه وتعريفه، ولعلّ هذا راجع إلى كونه كالعَلَم لا حاجة لبيانه، ومن جهة أخرى كون الأخضري كان دقيقا، فهو في خطابه متوجّه إلى المريد والسالك للطريق إذ يكفيه منه الجانب العملي.

وقد عرّف الذكر عند أرباب التصوف بتعاريف عدّة، منها تعريف الكلاباذي له بأنه :" نسيان ما سوى المذكور في الذكر " حَقِيقَة الذّكر أَن تنسى مَا سوى الْمَذْكُور في الذّكر " [22]، وفي الرسالة القشيرية: "والذكر على ضربين: ذكر اللسان وذكر القلب فذكر اللسان بِهِ يصل العبد إِلَى استدامة ذكر القلب والتأثير لذكر القلب فَإِذَا كَانَ العبد ذاكرا بلسانه وقلبه فهو

الكامل في وصفه فِي حال سلوكه " [23].

وقال ابن عجيبة :"وهو إذا اطلق ينصرف لذكر اللسان، وهو ركن قوي في طريق الوصول ..." [24].وقد جعله الهروي ضمن الأصول في كتابه وعرفه بقوله :" هو التخلص من الغفلة والنسيان "[25].

وعلى هذا الأساس يُعتبر الذكر ركنا هاما لسالكي طريق الحق عزوجل السائرين إليه، فلا وصول لمن لم يكن مداوما عليه، وهو المتفق عليه بين جميع الطرق الصوفية.

الفرع الثاني: **شروطه**

أشار الأخضري إلى شروط الذكر الصحيح التي لا يتم ولا يكتمل إلا بها، منها ما يجري مجرى الركن الذي يبطل به غيره لبطلانه، ومنها ما يجري مجرى الآداب الواجب استصحابها أثناء الذكر، ومن جملة هذه الشروط:

1-الخوف والحضور: أشار إليه الأخضري مستعملا في ذلك لفظا يفيد الاستدراك على ما قد يفهمه المريد من كون الأمر على إطلاقه، فقال:

لكن بشرط الخوف والحضور مع ادّكار هيبة المذكور [26]

لكن ماذا يكون حال المريد الذي أغفل هذا الشرط، وكان ذاكرا بلسانه لا بقلبه؟ يجيبنا الأخضري قائلا:

فمن تلك الغفلة والأمان في ذكره حجبه الشيطان
وحال بينه وبين ربه يقذفه وساوسا في قلبه
وأحدقت بقلبه غشاوة فلم يذق لذكره حلاوة[27]

يُشير الأخضري من خلال هذا الأبيات إلى الذكر بشقية القلبي الباطني وهو المُعبّر عنه بالحضور والذكر اللّساني الذي هو تعبير عن الحال التي ترد القلب ،ولهذا قيل :" القلب للمشاهدة وَاللِّسَان للعبارة عَن الْمُشَاهدَة فمن عبّر عن غير مشاهدة فهو شاهد زور "[28]،وإن كان ابن عطاء الله السكندري يقدم تخريجا جيدا في ضرورة ملازمة الذكر حتى مع الغفلة ،"لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعساه أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة..." [29].

ويرى العلامة الشيخ زروق الفاسي أن على المريد السالك أن يلتزم بالذكر في حال

الحضور والغفلة معا، فهو غير مقيّد بغيبة ولا حضور بدليل قول النبي ﷺللذي سأله عن شيء يلتزم به «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» [30]،فلم يدلّه إلا على ذكر اللسان لأنه مقدور العبد ابتداء بخلاف الحضور المُستلزم للفكر على الدوام [31].

ويُلفتنا الأخضري –رحمه الله– إلى أمر آخر وهو غياب حلاوة الذكر مع الإكثار منه مُستعملا في ذلك ما يُفيد الكثرة بلفظ [كم]

كم باذل قواه في الأذكار ولم يجد للذكر من ثمار
وذاك من وساوس الشيطان يهيج بالغفلة والأمان
فعالج الخواطر الردية بالدفع فهي حُجب قوية

وقول الأخضري [عالج] أمر للمريد بعدم استسلامه للخواطر والهواجس فما يعترضه في ذكره محض وسوسة، وهو ما عبّر عنه الشيخ عبد الحميد بن باديس بصدد كلامه عما يعتري القلوب "إن القلوب تعتريها الغفلة والقسوة والشكوك والأوهام والجهالات ،وقد تتراكم عليها هذه الأدران كما تتراكم الاوساخ على المرآة فتطمسها وتُبطل منفعتها، وقد يُصيبها القليل منها أو من بعضها، ولا تسلم القلوب على كل حال من إصابتها، فهي محتاجة دائما وأبدا إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن... " [32].

وعليه فلا مانع من ورود الخواطر ولا اعتراض في صدق نية المريد وإخلاصه فهو أمر يقتضيه الطريق، وفي إشارة الأخضري إلى طريقة التخلص من هذه الخواطر والهواجس بالدفع إشارة غلى بذل المجهود وهذا هو ذاته ما عبّر عنه ابن باديس فيما يعترض قارئ القرآن ،فقال :" وليحذر من ذهاب قلبه مسترسلا مع خواطره منصرفا عن تدبره والتذكر به، وإذا عرضت عليه الخواطر فليصرفها ليدفعَها وليحمل فكره على تدبر آيات الكتاب ولا ينقطع عن التلاوة، وإذا كانت الخواطر لا تفارقه فإن تصميمه على دفعها مع تكاثرها من جهاده لنفسه الذي يُثاب عليه وينتهي به في الأخير إلى الانتصار عليها "[33]

بعد إشارة الاخضري إلى عوائق السير التي تعترض المريد نجده يعرج على منزلة هذا الطريق ودقته، فمن ارتقى في المقامات وجب عليه قبل وضع قدمه أن يوطّئ قلبه فالأمر كله معقود عليه، وهو إرشاد آخر للمريد، يقول في هذا المعنى:

هيهات أن يطمع في الإبصار من قلبه في الهذيان جاري[34]

هل يرتقي لسلّم المعالي   من قلبه في عالم الخيال
لن يستقيم القلب للتوجيه   مادام هذا الهذيان فيه
كيف يصح فتح باب القدس   مادام في القلب غبار النفس[35]
لن يصل العبد إلى مولاه   مدّة ما ليل الهوى يغشاه[36]
حتى إذا نهاره تجلّى   بفتح باب الملكوت الأعلى
واجعل أخي همّك هما واحدا   تكن لما تطلبه مُشاهدا[37]

إن المتأمل في هذا المقطع من النظم، يجد أن الأخضري ذكره تبعا لحديثه عن تعلق الذكر بالقلب بكونه مَقَرّا له، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يُلاحظ استعمال الاستفهام[هل] والنفي[لن]، واسم فعل الماضي [هيهات] بمعنى بَعُد، وكل سياق نجد الاخضري قرنه بذكر القلب، وهو تأكيد لما وطّأ به، وهو كون الذكر متعلق بالقلب، لذا نفى الناظم واستبعد كل ذكر يخلو من حقيقة ما ذكره سلفا.

2-الالتزام بآداب الذكر ومراعاة حرمة الشريعة: أشار الأخضري في نظمه إلى شروط لا بدّ للسالك المريد الالتزام بها أثناء الذكر، فقال:

ومن شروط الذكر ألا يُسقطا   بعض حروف الاسم أو يُفرِطا[38]
في اللفظ من مناسك الشريعة   عمدا فتلك بدعة شنيعة[39]
والرقص والصراخ والتصفيق   عمدا بذكر الله لا يليق
وإنما المطلوب في الأذكار   الذكر بالخشوع والوقار
وغير ذا حركة نفسية   إلا مع الغلبة القوية
فتواجب تنزيه ذكر الله   على اللبيب الذاكر الأواه
عن كل ما تفعله أهل البدع   ويقتدي بفعل أرباب الورع

هذه هي الشروط التي ذكرها الأخضري في نظمه، وهي تتلخص فيما يلي:

أ-عدم إسقاط بعض حروف الاسم، وهو إشارة هنا إلى اسم الله الأعظم (الله)، فمن صور الذكر ذكر الاسم المفرد (الله)، وقد كتب ابن عطاء الله السكندري كتابا في ذلك سمّاه القصد المجرّد في معرفة الاسم المُفرد، وهو عنده لفظ الجلالة الله، يقول في هذا:" إن هذا الاسم المفرد المعظم المقدم المجرد، أعني الله عز ذكره. هو اسم الذات العلية. الموصوفة

بصفة الألوهية المعروفة بنعوت الربوبية. المتصف بصفة الأحدية. المنفرد بوحدة الوحدانية. المنعوت بصمدانية الصمدية. المنزّه عن جنس الكيفية. وأنواع المثليّة. المقدّس عن أن يحيط بمعرفة كنه إدراكه عقول البشرية. فهو: الله". [40]

وقول الأخضري [أو يُفرِطا في اللفظ من مناسك الشريعة] إشارة إلى الشطط في الذكر اسم الله فينبغي أن ينطق به السالك نُطقا مُعتدلا لا يؤدي إلى تحريف معناه ،وفي حرف العطف أو دلالة على الخيار، فالأول إسقاط بعض حروف الجلالة والثاني الإفراط في النطق بالخروج عن حدود المدّ ،وكلاهما مرفوض في الذكر مُجانب للأدب ، وقد يكون الإفراط هنا إفراطا في آداء العبادات وهو المُعبّر عنه بمناسك الشريعة إذ أنها أعظم أنواع الذكر ،وقد أورد ابن عجيبة –رحمه الله– في تفسير قوله تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها﴾ طه/130/ ،فقال:" ففيه ترجيح من فسرها بالصلاة، وفيه إشارة إلى أنَّ الصلاة ذكر وإقبال على الله وانقطاع إليه" [41].

وهذا الذي ذكره الأخضري نقد ضمني لواقع التصوّف والطرق الصوفية في عصره التي جنحت عن القواعد والآداب التي أرساها أرباب التصوف، لذا نجد الأخضري يُعرّض بصنيعهم ويكشف ما ابتدعوه:

خلوا من اسم الله حرف الهاء فأجحدوا في أعظم الأسماء [42]
لقد أتوا والله شيئا إدّى تخرّ منه الشامخات هدّى [43]
والألف المحذوف قبل الهاء قد أسقطوه وهو ذو خفاء [44]
وغرّهم إسقاطه في الخطّ فكلّ من يتركه فمُخط
قد غيّروا اسم الله جلّ وعلا وزعموا نيل المراتب العُلا

ومن أبرز الطرق الصوفية التي انتشرت في عصر الشيخ زروق الفاسي خلال القرن التاسع الهجري ببلاد المغرب القادرية والشاذلية، وإن كانت منظومة الاخضري (القدسية)بأكملها تذكر أحوال المتصوفين وتنعى عليهم اللجوء إلى الخرافة والشعوذة وتدعو إلى التمسك بالعلم ونبذ البدعة والعمل بالكتاب والسنة والجمع بين علمي الظاهر والباطن. [45]

ولم يكن هذا حال الجزائر المحروسة فقط، بل كان هذا حال الأقطار كلها، فهذه

تونس في هذا العصر :"تقرّب الناس إلى الأولياء وتعلق الناس بالخوارق والعجائب وطغت المعتقدات الجاهلية وخرافاتها من جديد "[46].

وكان أبرز ما ميز التصوف في تونس في هذه الفترة :"...سادت ظاهرة تصوف المرابطين بتأثير من أبي العباس أحمد بن عروس ،فأحيط بهالة من القداسة، وكان متجاوزا الأحكام الشرعية، والأخلاق العامة، وكان تصوفه سببا في انحطاط المستوى الذهني والروحي لأتباعه" [47].

ويصف لنا عبد الكريم الفكون التصوف في عصر عبد الرحمن الاخضري في كتابه الذي يعكس عنوانه سبب ما ألف من أجله(منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية) ،قال في شأن قاسم بن أم هانىء بنواحي نقاوس الذي اتخذ في ذلك الوقت خلوة ومريدين وأظهر التقشف والزهد في المأكل فكان يأكل النخالة والشعير ،وفي الملبس فكان يلبس حقير الثياب واتّخذ له ولمريديه حضرة يذكر فيها الله ويغيّرون اسمه ويشطحون ويرقصون:"...واتخذوا الحضرة وهي لعبة يتخذونها يُراؤون بها الناس يعيشون بها ويقضون بها أوطارهم، لا يفرقون بين واجب ومندوب، ولا محرم ومكروه، ويعتقدون أنهم على الحق، وإذا وضعت لهم المائدة فذئاب عاوية، يدّعي رئيسهم الولاية وشفاء الناس من الأمراض والأسقام"[48].

ويكتب الفكون كاشفا زيف المدعين طرف المدّعين والرؤساء الجاهلين الذين اتخذهم البعض رؤساء جهال أضلوا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير:

" ...صار الجاهل رئيسا والعالم في منزلة يُدعى من أجلها خسيسا وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروايح السلب والطرد من المولى عليه فائحة، إلا أنهم –أعني الطائفتين – تمسّكوا من دنياهم بمناصب شرعية ،وحالات كانت قِدما للسادة الصوفية ،فموّهوا على العامّة بأسماء ذهبت مسمياتها، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها ،لبّسوا بانتحالهم لها على أهل العصر أنهم من أهلها ... " [49].

إنّ ما ذكره الشيخ عبد الكريم وأشار إليه الأخضري في نظمه صورة حية لواقع موسوم بالضعف والانحطاط والخرافة والجهل، مما يؤكد أن التصوف تأثر بأوضاع العصر وحاد به المنتسبون إليه عن تلك المعالم البارزة المستقاة من الكتاب والسنة ،لا سيما إذا علمنا

أن الفضل في دخول التصوف إلى بلاد المغرب الإسلامي كان بفضل أبي حامد الغزالي، لكن للأسف أضيف إليه ما ليس منه: "...اتجه اتجاها سلبيا كالمبالغة في الاعتقاد في الشيخ، وظهور الحضرة والأوراد"[50].

وإن كان كلام الدكتور أبي القاسم سعد الله بحاجة إلى مناقشة فنقده لمسلك المبالغة في الاعتقاد في الشيخ صحيح، وهو المسلك الذي نبّه إليه أرباب الطرق الصوفية كالشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه الغنية: " ...فإن لم يجد له عُذرا في الشرع استغفر للشيخ ودعا له بالتوفيق والعلم والتيقظ والعصمة والحمية، ولا يعتقد فيه العصمة.. »[51].

يعرّج الاخضري بعد إشارته لصنيع الطرق في الذكر وحالهم فيه نجده يصفهم بأقبح الأوصاف، أما ما يحدث لهم من تغير حال أثناء وجدهم المزعوم، فيعلل الاخضري هذه الحال بقوله:

تغرّهم مذاقة طبيعية   سببها حركة نفسية

فالمذاقة من الذوق، وطبيعية بمعنى طبيعة، أي أضحت بحكم العادة كالطبع، وسبب هذه المذاقة تغيّر الحالة النفسية الناتجة من الصراخ والتصفيق والشطح، أما ما يدعونه من أسرار وأحوال وبلوغهم الكمال، فما أبعدهم عن ذلك:

والقوم لا يدرون ما الاحوال   فكونها لمثلهم محال [52]

ونجد الاخضري يبرّئ ساحة التصوف التي يصطلح عليها (القدس) من صنيع الجهال على حدّ تعبيره وهو ما يُلمس في قوله:

حاشا بساط القدس والكمال   تقدمه حوافر الجهال [53]

فانظر كيف استبدل القدم الذي يطأ البساط بلفظ الحافر الذي هو للحيوان، بل نجد الاخضري يرصف الصفات واحدة تلو الاخرى لمبتدعة زمانه -كما يعبر عن ذلك الفكون- فنراه يقابل بين الجاهلين والعارفين لبيان الفرق والاختلاف:

والجاهلون كالحمير الموكفة   والعارفون سادة مشرفة

وفي موضع آخر نجد وصفا أشد قبحا، إذ يشبههم بالحمير والكلاب:

ويذكرون الله بالتغيير   ويشطحون الشطح كالحمير

وينبحون النبح كالكلاب   مذهبهم ليس على الصواب

وهذا نقد قاسي جدا من عبد الرحمن الأخضري، وتشبيه مدّعي التصوف ببعض الحيوانات، وهو مسلك كان ينبغي أن يترفّع عنه، فانتقادنا للآخر -مهما كان على ضلال وتيه- لا يخول لنا أن نسلك مسلك وصفه بأحط الأوصاف والتشبيهات، وهو مما يتنافى مع رسالة التصوف الحقّة التي أرساها أرباب التصوف. فهذا حمدون القصّار دعا في وصيته إلى صُحبة الصّوفية وعلّل ذلك بقوله :" إن لهم للقبيح وجوها من المعاذير [54]،وهذا الوصف منبئ بالفضائل والقيم التي تحقق بها أهل التصوّف ،ولا يُوجد خلق أرفع من التماس العذر للصحب والإخوان عند الخطأ والزلات ،واستصحاب هذا الخلق ينبىء عن حسن الظن وسلامة الطويّة وبُعد صاحبها عن التُهمة، وهذا الجنيد سيد الطائفة في سياق حديثه عن الصوفي الحقيقي وصفاته وأخلاقه يمثّله بالأرض التي يُطرح عليها كلّ قبيح ولا يخرج منها إلا كلّ مليح ،أو كالأرض يبطؤها البَّر والفاجر ،وكالسحاب يُظلّ كلّ شيء وكالمطر يَسقي كل شيء [55]، ويطالعنا كتاب "أسرار التّوحيد" بموقف أبي سعيد من العصاة والمجرمين، فقد كان يعقد مجلس وعظ في "ميهنة" وكان بجنبه سكارى علا صوتهم فذهب أصحابه وهدموا عليهم المنزل، وجواب أبي سعيد لهم أنّهم انشغلوا بالباطل لدرجة أنّهم لا يشعرون بما أنتم فيه من حقٍّ وأنتم بالرّغم من رؤيتكم للحقِّ فلم تنشغلوا به حتّى لا تشعرون بباطلهم، فكانت الثّمرة توبتهم على يديه، كما كان اليهود والمسيحيّون يسلمون على يديه ويعظّمونه [56].

الفرع الثالث: ثمرات الذكر

بعد حديث الاخضري عن أحوال المبتدعة المنتسبين إلى التصوف وبيان ما أحدثوه من تغيير في طريقة الذكر ووصف حالهم، وبيان أن ما يعتريهم أثناءه ما هو إلا نتيجة حركة نفسية تُترجم إلى صراخ وتصفيق وصراخ وشطح، وقد أشرنا إلى تلك الأبيات سابقا، انتقل بعدها الاخضري إلى الحديث عن الذكر الصحيح المؤسس على أصول الوحي ومُراعيا للآداب، مع بيان ثمراته، فقال:

فمن يكن مشتهرا بالذكر بشرطه عن خشية وفكر

يُلمس في هذا البيت حضور مُصطلحين غابا في كلام الاخضري السابق للسياق الآنف الذكر-النقد- فمدعوا التصوف غيبوا هذين المصطلحين، لكن نجد حضورهما هنا كقيدين وشرطين للذكر الصحيح الذي يُثمر ثمرات متعددة منها:

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

-جريان اللسان على الأذكار :،والجريان هنا استعارة مكنية ،فخشية الذاكر وتفكره في ذكره ووروده يجعله مستصحبا لهذا الحال في كل ما يتلفظ به ،وهو ما يشهد به الحديث «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»[57].

وفي هذا المعنى أنشد الاخضري:

جرى لسانه على الاذكار وأمطرت سحائب الأنوار

-ومن ثمراته تنوّر باطن وظاهر الذاكر ،ويستعمل الاخضري مصطلحا بليغا في قوله:[وأمطرت سحائب الأنوار]،وهو المعنى الذي أشار إليه ابن عطاء الله في حديثه عن ثمرات الذكر :"...وجلاء القلب وبياضه وتنويره بالذكر وباب الفكر"[58]

وإلى هذا المعنى أشار الاخضري بقوله:

حتى إذا مُزجت الأذكار بالقلب واستنارت الأفكار

حتّى إذا استنارت السريرة وأنبت معنى الله في السريرة

-أنس القلب بذكر الله ،وللأنس معنى كبير جدا عند الصوفية، ونجد سيد الطائفة الجنيد يُعطي معنى دقيقا للأنس بقوله: "الأنس ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة " [59] ،والمعنى اجتماع الرجاء مع الخوف، فالأنس ليس مانعا من استحضار عظمة الله، وإن كان الأنس به ينسي عذابه ،ومن المعاني اللطيفة ما نقله القشيري عن أبي عثمان قوله:" من لم يذق وحشة الغفلة لم يجد طعم أنس الذكر " [60].

وإلى هذا المعنى أشار الاخضري بقوله:

تأنّس القلب بذكر الله وصار طول الدهر غير ساه

-نموّ شجرة الإيمان في القلب :يرى الاخضري أن إدامة الذكر مُنبتة لشجرة الإيمان في القلب ،وهو المعنى المُستفاد من قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ إبراهيم /24 ،وفي هذا يقول الاخضري :

وانغرست في وسط الجنان شجرة تروق كلّ جان

دائمة الظلال والثمار وتحتها جداول الأنهار

وهو المعنى الذي أشار إليه ابن عجيبة بقوله:" ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لأهل «لا إله إلا الله»، وهم: أهل التوحيد، الذين رسخ التوحيد في قلوبهم، وعبّروا عنه بألسنتهم. فمثال الكلمة

الطيبة التي نطقوا بها، ورسخ معناها في قلوبهم كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ: كالنخلة مثلاً، أَصْلُها ثابِتٌ في الأرض، غائص بعروقه فيها، وَفَرْعُها فِي السَّماءِ أي: أعلاها" [61]،وهو المعنى الذي أكده البخاري في صحيحه في بيان المعنى المُستفاد من الآية السابقة فعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أَوْ: كَالرَّجُلِ المُسْلِمِ لاَ يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا، و تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ " قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ " [62]

-عدم السهو: والسهو هنا مرادف للنسيان ،وهو ،وهو أمر طبيعي وجبلّي ،لذا نجد القرآن الكريم يقرّ بهذه الحقيقة الكيانية، لكنه يوجهنا ويرشدنا إلى الذكر باعتباره حبلا يعيد السالك إلى حضرة الله ،لقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الكهف/24،وهو المعنى الذي أشار إليه الاخضري في البيت الآنف الذكر [وصار طول الدهر غير ساه]

ويقّدم لنا سيدي ابن عجيبة معنى لطيفا غير الذي يُفهم من ظاهر الآية ،قال :" أي: إذا نسيت ما سواه، حينئذ تكون ذاكرًا حقيقة، فالذكر الحقيقي: هو الذي يغيب صاحبه عن شهود نفسه ورسمه وحسه، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه لشدة غيبته فيه، وهذا أمر مشاهد لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته" [63].

فانظر كيف جعل ابن عجيبة النسيان هنا ليس نسيانا لذكر الله وإنما نسيانا لغيره من الأغيار ،فإذا وصل العبد إلى هذا المقام وأغفل وجود غير الحقّ كان ذاكرا حقيقة ،ولعلّه بهذا المعنى يومئ إلى ما يُصطلح عليه بالغيبة ولحضور ،فالغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، والحضور حضور المريد بالحقّ ،لاستلاء ذكر الحقّ عليه [64].

-انقطاع علائق الشيطان وكشف الغطا: وفي هذا المعنى يقول الأخضري:

وانقطعت علائق الشيطان وظهرت بصيرة الإنسان

وهو المعنى الذي تضمنه قوله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ الأعراف /201. والمراد بالطائف في الآية " الْخَاطِرِ الَّذِي يَخْطُرُ فِي النَّفْسِ يَبْعَثُ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ نَهَى اللَّهُ عَنْ فِعْلِهِ شَبَّهَ ذَلِكَ الْخَاطِرَ فِي مبدأ جولانه فِي النَّفْسِ ... وَالتَّذَكُّرُ اسْتِحْضَارُ الْمَعْلُومِ السَّابِقِ، وَالْمُرَادُ: تَذَكَّرُوا أَوَامِرَ اللَّهِ وَوَصَايَاهُ"[65].

وعليه فالذكر طرد للغفلة المنبعثة من النفس والشيطان والتي تجعل الإنسان مُنساقا

وراء حسّه وشهواته مُنجذبا لعالمه الترابي الطيني مما يزيد حجاب الغفلة ويغطي القلب بظلمة كثيفة ،فيأتي الذكر ليقويّ ليجعل الإنسان ناظرا ببصيرته بعد أن كان حبيس بصره وحسّه ويُكشف له الغطا فيغدو بصره حديدا برؤية الأشياء على ما هي عليه في حقيقتها لا في واقعها ،وقال ابن عجيبة في تفسير قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ الناس/01: " الذي عادته أن يخنس، أي: يتأخر عند ذكر الإنسان ربَّه "[66]

وفي الصحيح عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ في تفسيرها : «إِذَا وُلِدَ خَنَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَهَبَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ ثَبَتَ عَلَى قَلْبِهِ»[67].

-تحلّي القلب بالعلوم والسرّ بالفهوم، وفي هذا أشار الأخضري بقوله:

ونُقشت في قلبه علوم   وأُيّدت في سرّه فهوم

والعلوم هنا الأسرار والمعاني اللطيفة وليست العلوم المُكتسبة وإنما ما كانت وهبا من الحقّ ،وهو ما أخبر به القرآن الكريم حكاية عن العبد الصالح ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ الكهف/65.

جاء في تفسيرها :"علما خاصا، لا يكتنه كنهه، ولا يُقدر قدره، وهو علم الغيوب، أو أسرار الحقيقة، أو علم الذات والصفات، علمًا حقيقيًا" [68]، ويؤكده أيضا المعنى الذي أشار إليه القشيري بقوله:" العلم من لدن الله ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتّطلّب "[69]،وعليه فالعلوم والفهوم هنا ما ينطبع في مرآة القلب من معاني وأسرار ربانية ،لا يمكن الوقوف على حقيقتها بالأدلة والأقيسة والبراهين ،فهي أعلى من ذلك وفوق إدراك العقول ،ومما يؤكد هذا المعنى تلك المقدمة التي صاغها الخضر عليه السلام حين طلب موسى عليه السلام صحبته ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾الكهف/67-68،واعتراض موسى على صنيع الخضر عليه السلام في كلّ مرة ،لذا لما قدم الخضر تعليل أفعاله علم موسى عليه السلام أن ما أوتيه الخضر كان من علم الله ،وقد فصّل القشيري في رسالته في بيان الفرق بين العلم والمعرفة ،وبيّن أن من تعرّف على الله بأسمائه وصفاته :" صار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عِنْدَ ذَلِكَ عارفا وتسمى حالته معرفة بالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عَزَّ وَجَلَّ " [70].

ويحدثنا القشيري عن أنوار الذكر ودرجاته وثمراته(العلم والفهم واليقين) قائلا:

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

"والنور الذي من قبله- سبحانه- نور اللّوائح بنجوم العلم، ثم نور اللوامع ببيان الفهم، ثم نور المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نور المكاشفة بتجلّي الصفات، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد"[71]

كما نجد مؤسس الطريقة الشاذلية أبا الحسن الشاذلي ينبّه إلى خطورة الاستدلال على المعارف الإلهية والحقائق الغيبية بمحض الحس:" إذا جاذبتك هواتف الحق، فإياك أن تستشهد بالمحسوسات على الحقائق الغيبيات، وتردّه فتكون من الجاهلين، واحذر أن تدخل في شيء من ذلك بالعقل " [72].

أما قول الأخضري [وأُيّدت في سرّه فهوم]،فهو ثمرة لما قبله [ونُقشت في قلبه علوم]،فمن كان قلبه محل المعاني والمعارف والأسرار الربانية كان مؤيدا من قبل الحقّ ،فحاصل المعرفة الفهم عن الحقّ بمعرفة حكمته الجارية، لذا فمن نفخ في رماد الأسباب ظهرت له حكمة الحقّ متوهجة ،وعليه فالتأييد بالفهم هو زيادة نعمة وموهبة وهو محض توفيق من الحقّ لعباده الذاكرين الصادقين من الأنبياء والأولياء والمؤمنين ،قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الأنبياء/79،وهنا لطيفة في غاية الدقّة ذكرها القشيري مبينا أن الله منّ عليه بالفهم ولم يمن عليه بشيء من الملك الذي أعطاه [73]،مما يجعل الفهم عن الله من المواهب وليس من المكاسب وهو ما أشار إليه الاخضري.

-**ليونة القلب:** وإلى هذا المعنى أشار الأخضري بقوله:

ولان قلبه وقد أصابا   في الغيب نحو الملكوت بابا

وليونة القلب إشارة إلى جلاء القسوة واليبوسة عنه بدخول الذكر فيه ،وهو ما يؤكده قول النبي ﷺ للذي سأله عن شيء يتشبث به فأجابه قائلا «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»[74]،وليونة اللسان من ليونة القلب ،فكل إناء بما فيه ينضح ،واللسان ترجمان القلب ،وهو المعنى الذي أشار إليه الشاعر الأخطل بقوله:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما   جُعل اللسان على الفؤاد دليلا [75]

وقول الشاعر زهير بن أبي سلمى في معلقته:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه   فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم [76].

وهذا المعنى أشار إليه الأخضري في ختام نظمه في سياق حديثه عن الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام يتحقق باللسان والإيمان يتحقق بالجنان والقلب، أما الإحسان فيتحقق بالروح، يقول في هذا:

وذِكْرُ أهل الفضائل والبصائر   يوازن الثلاثة الدوائر[77]

دائرة الإسلام والإيمان   فوقهما دائرة الإحسان

وذلك باللسان والجنان   والروح وهو منصب الاحسان [78]

فالقلب ترجمانه اللسان   والروح ترجمانه الجنان

ولهذه الحقيقة والثمرة (ليونة القلب) ما يشهد لها في الحديث المروي «إِن هَذِه الْقُلُوب تصدأ كَمَا يصدأ الْحَدِيد قيل وَمَا جلاؤها قَالَ تِلَاوَة الْقُرْآن وَذكر الْمَوْت»[79]

ومما يؤكدّ كون الذكر مُثمر لليونة القلب بيان الله تعالى أن قسوة القلب بترك ذكر الله ووعيد الله لمن قسا قلبُه ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الزمر/22،وجاء في معناها " أي الصّلبة قلوبُهم، لم تقرعها خواطر التعريف فبقيت على نكرة الجحد" [80]،وقال ابن عجيبة أن هذا ثَبَتَ تحقيقُه وتحقّقُه ،فالذي يفرّ من ذكر الله حاله كحال الجُعَل التي تتضرر برياح الوَرد، وتنتعش بالروائح الكريهة، وعلى هذا فكلّ مَن يفرّ من ذكر الله، ويثقل عليه، فقلبه جُعَل.[81]،وفي هذا التوصيف والتشبيه بالجُعَل استنهاض لهمّة المريد السالك لطلب المعالي والاتّصاف بأخلاق الأنبياء والأولياء .

وعلى هذا الأساس فالذكر مفتاح لإصلاح القلوب ومداواتها وجلاء صدأ مرآتها وهو التحقق بقوله تعالى :﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد/28،وصلاح القلوب طريق لصلاح العاجلة والآجلة ،وفي هذا يقول المحقق العلامة زروق الفاسي :" القلب أساس الخير والشر ،وحياته وموته مفتاح النفع والضر، فمن لا حياة لقلبه فلا حيلة في دفعه وجلبه، وكل قلب حلّته الحياة ،دَعته إلى النهوض عند المذاكرات" [82]،وفي عبارة زروق (حلّته الحياة) أي كانت تحليته بأنوار الذكر وتخليته من أوضار الهموم والفِكَر طريقا لصلاحه وليونته وذهاب قسوته ،وهو المعنى الذي تضمنه حديث النبي ﷺ«أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ»[83]

-فتح باب الملكوت:ويُمثل الاخضري-رحمه الله- لهذا الأمر بحال موسى عليه السلام حين وقوفه على عتبة باب ربه، بعدما آنس من جانب الطور نارا، ولم تكن النار إلا دعوة لطيفة من الله جذبا لقلب موسى عليه السلام، وأمر الله له بترك الأسباب، وهو ما جاء في قوله تعالى:﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ طه/ من 09 إلى 12،

ينتقل الأخضري بعدها إلى حال آخر خامر كليم الله موسى عليه السلام بعد رؤيته لنور ربه وطلبه رؤيته لقوله تعالى حكاية عنه:﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾الأعراف/ 143.

الفرع الرابع: مزالق الذكر في الطريق

بعد إشارة الاخضري إلى غلبة الحال على قلب المريد يرسم له الطريق، وهذا في غاية الدقّة، إذ قد يتهجم على المريد خواطر فيظنّ أنها من الحقّ، وما هي كذلك، إذ قد تكون استدراجا له فقط، وهذه لفتة قوية من الاخضري وإدراك ثاقب منه بأسرار الطريق وعوائقه، فقال محذرا المريد:

إياه أن يغرّه الخيالُ فيزدري بقلبه الختّالِ

فربّ سالك رأى سرابا بقيعة يظنه شرابا

وهذا الأمر الذي نبّه إليه الأخضري مزلق خطير في الطريق إلى الحقّ وجب على المريد أن يعلمه ويعرف مداخله ومزالقه وإلا انقطع، وهو الأمر الذي نبّه إليه أساطين التصوف ممن كانت لهم قدم راسخة في الشرع، ويبين عبد القادر الجيلاني هذا الأمر بطرح عميق في جوابه لسائل سأله عن الخاطر: "...ما يُدريك ما الخواطر؟ خواطرك من الشيطان والطبع والهوى والدنيا، همّك ما أهمّك، خواطرك من جنس همّك، ما يعمل خاطر الحقّ عزوجل لا يجيء إلا إلى قلب خال عما سواه، كما قال تعالى ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ يوسف/ 79 [84]

ويبيّن عبد القادر الجيلاني أنواع الخواطر للمريد ليكون على بصيرة وليكون مُدركا

للخاطر الحقّ :" إذا كان الله عزوجل وذكره عندك فلا جرم يمتلئ قلبك من قربه وتهرب خواطر الشيطان والهوى والدنيا من عندك، للدنيا خاطر ،والآخرة خاطر، وللملك خاطر وللنفس خاطر، وللقلب خاطر وللحق عزوجل خاطر ،فتحتاج أيها الصادق إلى دفع جميع الخواطر والسكون إلى خاطر الحق عزوجل..." [85].

ويذكر الشيخ زروق في كتابه عدة المريد الخواطر التي ترد على الإنسان ،ويجعلها أربعة أقسام ،شيطاني وربّاني وملكي ونفساني :" فالمَلَكي مثل غبش الصبح ،والشيطاني مثل شُعلة النار، يحدث به احتراقا وهَوْشَةً في البدن، والرباني كالشمس الضاحية مع برودة تُثلج الصدور ويتنعم بها، والنفساني مثل الفجر الكاذب، قائم واضح تعقبه الظلمة، ويظنه الظان حقيقة وليس بها" [86]،فانظر كيف تختلف الواردات على قلب الإنسان مما يجعله يقع في الخلط والتلبيس في تمييز بعضها ومصدرها ،وقول زروق (ويظنه الظان حقيقة وليس بها) هو ما أشار إليه الأخضري في نظمه في البيت السابق :

فربّ سالك رأى سرابا بقيعة يظنه شرابا

وهذا اقتباس للفظ والمعنى من قوله تعالى :﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ النور /39.

وهذا الذي ذكره الأخضري ونبّه إليه وضع أساطين التصوف منهجا دقيقا لنخل الحق عن الباطل وتمييز الطيب من الخبيث من الأقوال والأفعال والخواطر ، فقد دعا الشاذلي إلى التزام الشرع ونبه السالك إلى اتباعه في حال تعارض كشفه مع ما جاء به الشرع فالشرع مقدّم وعليه أن يتمسّك بالكتاب والسنّة لأن الله ضمن له العصمة فيهما ،كما دعا إلى الاقتداء بالنبي ﷺوالصحابة والتابعين وهذا هو الطريق الذي يسلم به المريد من الشكوك والظنون والأوهام[87]،وهو ما أكده العلامة الأخضري في منظومته بقوله:

والفرق بين الإفك والصواب يُعرف بالسنة والكتاب

والشرع ميزان الأمور كلها وشاهد لأصلها وفرعها

وهذا الميزان في الطريق الصوفي نصبه أساطين التصوف ،فهذا الجنيد سيّدُ الطّائفة يقول: "الطّريقُ كلُّها مسدودةٌ على الخلق إلاَّ على من اقتفى أثَرَ الرّسولِﷺ،وقوله أيضا: "من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر، لأنّ علمنا هذا مقيّد بالكتاب

والسنّة"[88].

وإنما يُفتح بالأذكار لحازم بالليل والنهار
إذا اعتراك سُقم في القلب فافزع إلى الذكر ولُذ بالرب
فإن تكن لم تنتفع بالذكر فاندب على نفسك طول الدهر [89]

الخاتمة

بعد هذه الوقفة مع أهم المنظومات في التصوف الإسلامي لأحد أعلام الجزائر في القرن العاشر الهجري (عبد الرحمن الأخضري البنطيوسي البسكري)، نخلص إلى مجموعة من النتائج أهمها:

1-أهمية علم التصوف الإسلامي للسالك إلى الله عزول، لكون أساطينه حددوا معالمه ورسموا خطواته وبينوا مزالقه، لذا فالسالك فيه يسير على بينة وهدى، وهو ما يمكن تلمسه فيما وضع من قواعد، كما فعل ذلك الشيخ زروق الفاسي البرنسي.

2- ثراء القرن التاسع والعاشر بتأليف المنظوم في التصوف، وأغلبه كان اختصارا لما ورد في كتب القوم.

3-إسهام علماء الجزائر في الحفاظ على الجانب القيمي والأخلاقي للأمة، وهو ما تشهد به مؤلفات الأخضري والثعالبي والسنوسي ومجالس أبي مدين واحمد بن يوسف الملياني وغيرهم كثير

4-التكامل المعرفي لدى علماء الجزائر، وهو ما يظهر جليا مع عالمنا الجليل (عبد الرحمن الاخضري البنطيوسي البسكري)، فللرجل إسهامات في الفقه والتصوف والمنطق والفلك والبلاغة، وهو ما يؤكده عناية المشارقة والمغاربة بمؤلفاته خصوصا نظمه في المنطق (السلم المنورق في علم المنطق)

5-انتشار الطرق الصوفية بالجزائر خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين، وازدهاره مع بداية الحكم العثماني خلال القرن 16م، الموافق للعاشر الهجري، ومن أشهر الطرق الصوفية انتشارا بالجزائر الشاذلية والقادرية، وقد كان عبد الرحمن الاخضري على مشرب الطريقة الشاذلية.

6-التعامل الموضوعي مع المُعطى المعرفي خلال القرن العاشر الهجري، وهو ما تؤكده القراءة النقدية لعبد الرحمن الأخضري لواقع التصوف في عصره، من خلال تسليطه الضوء على الانحراف الذي وصلت إليه بعض الطرق الصوفية في عصره.

7-الخط النقدي الممتد من القرن التاسع الهجري مع والد عبد الرحمن الأخضري (محمد الصغير) إلى القرن الحادي عشر الهجري، الذي مثّله الشيخ عبد الكريم الفكون (ت1073هـ)، بكتابه منشور الهداية، الذي كشف فيه مُدّعي العلم والولاية.

8-إسهام الحكم العثماني في ازدهار التصوف والطرق الصوفية بالجزائر، وهو ما تشهد به أغلب المدونات التي ظهرت وانتشرت مع بداية القرن السادس عشر ميلادي إلى منتصف القرن التاسع عشر ميلادي.

9-تأثر التصوف الإسلامي بالأوضاع الاجتماعية وامتزاجه بكثير من الأعراف والعادات والتقاليد والفلكلور الشعبي، مما أسهم في خلق إضافات وزيادات لم تكن موجودة فيه من قبل، ومثال ذلك ما انتقده عبد الرحمن الأخضري على بعض الطرق الصوفية في طُرق الذكر من رقص وصراخ وتصفيق.

10-أهمية النقد الداخلي للتصوف ،فعبد الرحمن الأخضري كان صوفيا على مشرب الطريقة الشاذلية ،وهو عامل مهم يُسهم في القراءة الموضوعية الواعية والداخلية للتصوف الإسلامي ،وهو مسلك نقدي تفتقر إليه مختلف المدارس والاتجاهات ،فمن شأن هذه القراءة أن تُسهم في إعادة بناء التصوف وتصحيح مساره ،كما يمكن أن يُساهم في إنتاج أحكام نقدية آمنة بناء على قاعدة الشيخ زروق الفاسي البرنسي [الحكم عن الشيء فرع عن تصور ماهيته]،وهو عامل مهم من شأنه أن يُساهم في إبعاد القراءات المتهافتة للتصوف الإسلامي والتي تفتقر إلى رؤية متكاملة منهجا وموضوعا.

11-تجلي خاصية التصوف السلوكي عند متصوفة المغرب الإسلامي، وهو مؤشر يشهد عليه تحذير الأخضري من الخروج عن حدود الشريعة وأحكامها، وحثّ السالك على تطهير باطنه والتحلي بمكارم الأخلاق، والوقوف عند الأمر والنهي

12-ثنائية الشريعة والحقيقة، أو ما يُمكن أن نطلق عليه بالتكامل بين الفقه والتصوف، وهو تأكيد للمرجعية المعرفية عند علماء المغرب الإسلامي، التي أكدّ عليها علماء المغرب

الإسلامي وأضحت شعارا مُجسدا للهوية والتاريخ:

في عقد الأشعري وفقه مالك   وفي طريقة الجنيد السّالك

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

الهوامش:

[1] انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط 01، 1998، ج 01، ص 500 وما بعدها بتصرف، وانظر: أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، عبد المنعم القاسمي، دار الخليل القاسمية، الجزائر، ط01، 1427هـ،ص 191 وما بعدها بتصرف.

[2] انظر تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، ص 501، وأعلام الجزائر في التصوف، ص 192.

[3] انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، ص 498.

[4] وأعلام الجزائر في التصوف، ص 192.

[5] انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، ص 500-501 بتصرف.

[6] شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن مخلوف، تعليق عبد المجيد خيالي، منشورات محمد علي بيضون +دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 01،2003، ج 02، ص 412،

[7] انظر: الرحلة الورتيلانية، الحسين الورتيلاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط01، 2008، ص 14-15 بتصرف، وانظر: رحلة العياشي، تحقيق: سعيد الفاضلي+ سليمان القرشي، دار السويد للنشر والتوزيع، ط 01، 2006، ج02، ص 542.

- توجد مدينة قرب مدينة بسكرة والمعروفة بالزاب منطقة تُسمى بسيدي خالد حيث يُقال إن قبر النبي خالد بن سنان بها، وهي غير بعيدة عن بسكرة.

[8] انظر: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 01، ص 501 بتصرف.

[9] انظر مؤلفاته في كل من: الأعلام للزّركلي، خير الدّين الزّركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 15، 2002، ج 03، ص 331.وانظر: معجم المؤلّفين، رضا كحّالة، مكتبة المثنّى + دار إحياء التّراث، بيروت، بدون تاريخ، ج 05 / 187،وانظر:معجم المطبوعات العربية والمعربة، سركيس، مطبعة سركيس مصر ، 1928 ،ج02،ص 406،وانظر:إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان ،ج03،ص 421،وانظر:هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، اسماعيل باشا البغدادي ،دار إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان ،ج 01،ص 546.وانظر:اكتفاء القنوع بما هو مطبوع،

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

ادوارد كرنيليوس فانديك، تصحيح: محمد علي الببلاوي، مطبعة التأليف (الهلال) ،مصر، ط 1896،ص 205.

[10]مخطوط القدسية في التصوف، المكتبة الوطنية الحامة -الجزائر- تحت رقم:2646، ص02.

[11]مخطوط القدسية في التصوف، المكتبة الوطنية الحامة -الجزائر- تحت رقم:2646، ص02.وقد وردت كلمة آمين هكذا مكررة.

[12]المصدر نفسه، ص 02.

13التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 160.

[14]انظر: فلسفة الحياة الروحية، مقداد ياجن، دار الشروق، ط01، 1985، ص 51 بتصرف.

[15]الرسالة القشيرية ،ص 151.

[16]إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ابن عجيبة الحسني، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 410.

[17]مخطوط القدسية في التصوف، المكتبة الوطنية الحامة -الجزائر- تحت رقم:2646 ،ص02

[18]انظر :إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 06 بتصرف.

*حديث«**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**»، قال عنه النّووي ليس بثابت وعزّاه بعضهم إلى يحيى بن معاذ الرّازي، أُنظر في ذلك: التّذكرة في الأحاديث المشتهرة، الزّركشي، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 01، 1986، ص129. والمقاصد الحسنة، السّخاوي، تح: محمّد عثمان الخشت، تح: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1985،ص657. وانظر: كشف الخفاء، العجلوني، تح: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، ط 01، 2000، ج 02، ص 312.

[19] أُنظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصريّة، ط 1364 هـ، ص 271 وما بعدها بتصرّف.

[20]الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، ص 256.

[21]ابن باديس حياته وآثاره، عمار طالبي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 02، 1983، ج01،ص 129.

[22]التعرف لمذهب أهل التصوف ،الكلاباذي، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ، ص 103.

[23]الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، ص

[24]معراج التشوف إلى حقائق التصوف ،ابن عجيبة، تحقيق: عبد المجيد خيالي ،مركز التراث الثقافي المغاربي، الدار البيضاء، بدون تاريخ، ص 47.

[25]منازل السائرين ،عبد الله الهروي، دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ط 1988،ص 71.

[26]وردت في نص المخطوط الموجود بالمكتبة الوطنية الحامة -الجزائر- تحت رقم:2646 بلفظ إنكار بدل ادّكار ،ص 11،والصواب ادّكار ، لكي يتناسب مع كلام الاخضري وينسجم مع المقام، فالادّكار هو التذكر لقوله تعالى حكاية عن صاحب يوسف ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ يوسف/45، أي تذكر بعد نسيانه ،ولا يعقل أن يُنكر الذاكر هيبة المذكور وهو الله ،وإلا لم يكن ذاكرا ،فلا بد من ادّكاره وتذكره واستحضار عظمته ، وهو المثّبت في نص المنظومة الواردة ضمن كتاب الروض الباسم في ترجمة سيدي محمد بن أبي القاسم، محمد بن الحاج، المطبعة التونسية، بدون تاريخ ،ص 116.

[27]في البيت الثالث الأخير عبارة [لذكره حلاوة]،جاء في المخطوط للذكر بدل لذكره، انظر: المنظومة الأخذرية ، مخطوط سابق، ص 11.وفي الروض الباسم وردت عبارة لذكره. انظر: الروض الباسم، ص 116.وإن كان كلاهما صحيح من حيث المعنى إلا أن ما يتفق مع الوزن العبارة التي أثبتناها [لذكره]،وإضافة ضمير الغائب–الهاء–إشارة إلى المريد وفيه تنبيه وإيقاظ قويّ له.

[28]التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص 105.

[29]حكم ابن عطاء الله السكندري ،شرح الشيخ زروق الفاسي، تحقيق: عبد الحليم محمود، دار الشعب، القاهرة ، ط 1985،ص 87-88.

[30]أخرجه الترمذي عن عبد الله بن بُسر، أبواب الدعوات، بَاب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الذِّكْرِ رقم:3375

[31]انظر: شرح الشيخ زروق الفاسي على الحكم، مصدر سابق، ص 87.

[32]ابن باديس حياته وآثاره ،ج01،ص 146.

[33]ابن باديس حياته وآثاره ،ج01،ص 149.

[34]هذا البيت ورد في المخطوط مباشرة بعد قوله [فعالج الخواطر الرديّة بالدفع فهي حُجب قوية]،ولم يورده صاحب الروض الباسم، إذ ذكر بعد هذا البيت الأخير بيتا آخر وهو قول الناظم [هـــــــل يرتقي لسلّم المعالي......]،ولعل هذا سهو من صاحب الروض الباسم، وأنا أثبتّ ما ورد في المخطوط. انظر: مخطوط المنظومة الأخذرية، ص 12،وانظر أيضا: الروض الباسم، ص 116.

[35]في المخطوط [غُبار]،وفي الروض الباسم [غُيار]،انظر: المخطوط ،ص 13،وانظر:الروض الباسم، ص 116.وكلا المعنين صحيح، فالغُبار إشارة إلى ما يعلق بالنفس، والأغيار هي المخلوقات على تعبير الصوفية،

فجاء في التعرف في توظيف هذا المصطلح (أغيار) في سياق تعريف الأنس : " الأنس هو أن يستأنس بالأذكار فيغيب عن رؤية الأغيار". انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص 107.

[36]هكذا ورد في المخطوط، ص 13،وجاء البيت في الروض الباسم ،ص 116عكسيا [مدّة مـــا ليل الهوى يغشاه لن يصـــل العبد إلى مولاه]،وقد أثبتّ ما ورد في المخطوط، لأن السياق الذي قبله والذي بعده يقتضيه، وإن كان الوزن لا يختل بتقديم أو تأخير، ومما يستقيم مع النظم من حيث البلاغة ذكر النفي أولا ثم ذكر مقتضاه وسببه، وهو ما يؤكده النظم القرآني في مواضع كثيرة جدا ،منها قوله تعالى﴿ لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ التوبة/53،فبدأ بنفي قبول الأعمال ثم أعقبها بذكر السبب والعلّة المُحبطة للعمل وهي الفسق، فما جاء في المخطوط أصح وأفصح والله أعلم.

[37]هذا البيت الأخير لم يذكره صاحب الروض الباسم، ولعلّه سقط سهوا .

[38] هكذا وردت في المخطوط[يُسقطا-يُفرطا بالألف]،ص 13،وفي الروض الباسم ،ص 116 ، بدون ألف ،وكلاهما صحيح وزنا ومعنى ،وقد أثبتنا ما ورد في المخطوط.

[39] هكذا وردت [في اللفظ من مناسك الشريعة]، المخطوط ،13،وفي الروض الباسم عبارة [في البعض] بدل [اللفظ]،والأصح ما جاء في المخطوط لكون الكلام عن الذكر، كما أن السياق يقتضيه، فالأخضري ذكر شروط الذكر وهي :عدم إسقاط بعض الحروف-عدم الافراط في اللفظ في المناسك وهي العبادات، وعليه فالصحيح اللفظ بدل البعض.

[40]القصد المجرّد في معرفة الاسم المُفرد، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق: محمود توفيق الحكيم، مكتبة مدبولي، القاهرة ،ط 01،2002،ص 24.

[41]البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، تح: حمد عبد الله القرشي، النّاشر حسين عبّاس زكي، القاهرة، ط 1419 هـ، ج 03، ص 435.

[42]في المخطوط [فأجحدوا]،ص 15،وفي الروض الباسم [وألحدوا].ص 117.،وكلا المعنين صحيح، فالإلحاد الانكار ،والجحود كذلك، وإن كان الإجحاد بهذا اللفظ لا يستقيم، ولعلّ الاخضري ذكره للضرورة الشعرية، وقد أثبتنا ما جاء في المخطوط.

[43]جاء في المخطوط[إدّى] بالألف المقصورة، ص 15 ،وفي الروض الباسم[إدّا]،ص 117.

[44]في المخطوط في الشطر الثاني [قد أسقطوه]،ص 15،وفي الروض الباسم جاء بلفظ [قد أسقطوا]بدون هاء ،ص 117.ولعلّ الصواب ما جاء في المخطوط، وهذا ما يؤيده الكلام في هذا المقام بضمير الغائب حكاية عن الطائفة المبتدعة .

[45]شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 01، 1986، ص 110.

[46]تاريخ تونس، محمد الهادي الشريف، دار سرادس للنشر، ط1985، ص 62.

[47]مدينة تونس في العهد الحفصي، عبد العزيز الدولاتي، تعريب: الدولاتي+ البستاني، دار سراس للنشر، ط 1981،ص81.

[48]منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، عبد الكريم الفكون، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط 1987،01،ص 119 وما بعدها.

[49] المصدر نفسه، ص 31-32.

[50]تاريخ الجزائر الثقافي ،أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط 1998،01،ج 01،ص 37.

[51]الغنية لطالبي طريق الحق عزوجل، عبد القادر الجيلاني ،منشورات محمد علي بيضون ،دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان ،ط 01، 1997ج02،ص 279.

[52]جاء في المخطوط [فكونها] بدل وكونها ،ص 16،وفي الروض الباسم لفظ [كونها]،ص 117. وكلاهما صحيح ،وإنما أثبت ما ورد في المخطوط

[53]هكذا وردت في المخطوط بلفظ [تقدُمُه]،ص 16،وفي الروض الباسم [تطؤه]،ص 117،وأظن أن ما جاء في الروض الباسم أصح لأن تقدمه في اللغة بمعنى تتقدمه ،وهو الوارد في قوله تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هود/98،جاء في تفسيرها بمعنى يتقدمهم ويسبقهم" كما يتقدمهم في الدنيا إلى الضلال" .البحر المديد،ج02،ص 555.

54 الرسالة القشيرية ، ص 313.

55 انظر هذه الصفات في :الرسالة القشيرية ،ص 313 بتصرف.

أُنظر: أسرار التّوحيد، ص 248 بتصرّف، وانظر: المصدر نفسه، ص 155 بتصرّف.[56]

[57]سبق تخريجه.

[58]القصد المجرد ،مصدر سابق ،ص 121.

[59]التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 106.

[60]الرسالة القشيرية، ص 259.

[61]البحر المديد ،ج3،ص 58.

ISSN: 1112-4938, EISSN: 2600-6456

62 أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر، كتاب تفسير القرآن ،باب بَابُ قَوْلِهِ: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾
،رقم :4698

63البحر المديد ،ج3،ص 263.

64المصدر نفسه، ص 104-105 بتصرف.

65التحرير والتنوير، مرجع سابق ،،الدار التونسية للنشر – تونس ،ط 1984 ج 09،ص 232-233.

66البحر المديد، ج 07،ص 378.

67أخرجه البخاري عن ابن عباس ، كتاب تفسير القرآن ،باب ب قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ الإخلاص/02 ،رقم:4975.

68البحر المديد،ج03،ص 288.

69لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني ،الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ،ط03،ج02،ص 407.

70الرسالة القشيرية ،ص

71 لطائف الإشارات،ج03،ص 277.

72طبقات الشاذلية الكبرى، الكوهن المغربي، منشورات محمد علي بيضون +دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط02، 2005،ص 23.

73لطائف الإشارات ،مصدر سابق ،ج02،ص 511.

74سبق تخريجه

75 يُنسب هذا البت للأخطل ولا وجود له في ديوانه ديوان الأخطل، الأخطل ،تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط 1994،02،

76المعلقات السبع مع الحواشي ،الزوزني، تحقيق: محمد خير أبو الوفاء،،مكتبة البشرى ،كراتشي ،باكستان،ط01، 2011،ص 87.

77 في المخطوط ،ص 38 جاءت بلفظ [ينوّر]،وفي الروض الباسم ،ص 123 بلفظ [يوازن] ،والصواب يوازن لأنها يتناسب مع المُقابلة بين ذكر أهل الفضائل والبصائر وهو على صور مُختلفة من عبادات ومُعاملات وأخلاق وإيمان ،وهذه لها ما يُقابلها ويشهد لها من دوائر الإسلام والإيمان والإحسان.

[78] لا وجود لهذا البيت في المخطوط ،ص 38،وإنما أثبتناه على وفق ما ذكره صاحب الروض الباسم ،ص 38،ولعله اعتمد على نسخة أخرى.

[79]أخرجه الْبَيْهَقِيّ فِي الشّعب من حَدِيث ابْن عمر بِسَنَد ضَعِيف، وأخرجه ابن شاهين في الترغيب في الذكر. انظر: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، العراقي، دار ابن حزم، بيروت ،لبنان،ط01، 2005،ص323.وإن كان الحديث في سنده نظر إلا أن المعنى صحيح .

=وانظر أيضا: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، تحقيق: بكري حياني + صفوة السقا، مؤسسة الرسالة،ط05، 1981،ج02،ص 241.

[80]لطائف الإشارات مصدر سابق ،ج03،ص 277.

[81]البحر المديد مصدر سابق،ج05،ص 69.

[82] إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين ،الشيخ زروق الفاسي ،تحقيق نزار حمادي ،دار الإمام ابن عرفة تونس ،بدون تاريخ ،ص 17.

[83] أخرجه البخاري ومسلم عن النّعمان بن بشير، البخاري، كتاب الإيمان، باب فَضْلِ من استبرأ لدينه، رقم: 52 ،ومسلم ،كتاب المساقاة، بَابُ أَخْذِ الْحَلَالِ وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ، رقم: 1599.

[84]الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، بدون تاريخ، ص 204.

[85]الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص 207.

[86]عدة المريد الصادق، الشيخ زروق، تحقيق: الصادق بن عبد الرحمان المغرياني، دار ابن حزم، ط01، 2006، ص 267.

[87] طبقات الشاذلية، ص 23.

[88] الرسالة القشيرية، ص 50-51.

[89]وردت في المخطوط هكذا بلفظ [فإن تكن]، ص 36، وفي الروض الباسم، ص 123 بلفظ [وإن تكن]، وكلاهما صحيح المعنى والوزن.

The truth and conditions mentioned by Abdul Rahman Al-Akhdari Al-Biskri (d. 953 AH)

Dr maamar koul
Institute of Islamic Sciences - University of Eloued – Algeria



Abstract:

The remembrance of Allah is considered one of the most honorable functions and acts of worship that the slave draws closer to his Lord and a strong indicator of the bond of faith that binds the creature to its Creator. God reminded him of what was the most complete, so he had to be accompanied by reverence and literature without recklessness or pretense with the presence of heart and thought, which was confirmed by Abdul Rahman Al-Akhdari in his system of "sacredness in mysticism" through which he addressed this The subject shows its truth and conditions and pillars.

Key words: the Remembrance - - Hadra - Sharia - truth - chastening - - Sunnah - term - juristic schools.

